المكتبة الخضراء للأطفال

٦٢

الكسلان وتاج السلطان

تأليف
يعقوب الشارونى

رسوم
أحمد أمين



المكتبة الخضراء للأطفال

٦٢

الكَسلانُ وتَاجُ السُّلطان



تأليف
يعقوب الشارونى

رسوم
أحمد أمين



دار المعارف

١ جَوْهَرَةٌ مَطْلوبَةٌ

انطلقَتْ ضَحكاتُ السُّلْطانِ الأكْبَرِ « الخليفَةِ هَارون الرَّشيد » تُعبِّرُ عنْ إعْجابِهِ الشَّديدِ بِحكاياتِ « أبو الأجراس » ، أظرفِ رُواةِ النَّوادِرِ والأخبارِ فى بغدادَ عاصِمةِ الخلافَةِ ، وَقدِ انطلقَ يُلقيهَا فِى أداءٍ تَمْثيلِيٍّ ساحِرٍ أثْناءَ لَيْلَةٍ مِنْ ليالِى السَّمَرِ المُمْتِعةِ فى القَصْرِ السُّلْطانِيِّ .

ولمحَ الخَليفَةُ الغُلامَ « همدان » المُكَلَّفَ بِالخدْمَةِ فى بَيْتِ النِّساءِ ، الذى اسْـتأذَنَ من سَـيِّدَتِهِ زُبَيْدة زَوْجَةِ الخَليفَةِ ؛ لِيُشارِكَ فى بهجَةِ ليالى سَيِّدِهِ ، فاسْتَدْعاهُ إلى جوارِهِ لِيُصْدِرَ إليه أمْرًا عاجِلاً :

« أسْرِعْ إلى سَيِّدَتِكَ .. هِىَ تُحِبُّ الاسْتماعَ إلى نَوادِرِ « أبو الأجراس ».. قُلْ لها الخَليفَةُ يَدعْوكِ لِلحُضورِ ، وتَأكَّدْ أن شُرْفَةَ السَّيداتِ قَدْ أعدَّتْها الوَصيفاتُ لاستقبالِهَا » .

وَفوجِئَ الخَليفَةُ بعدَ قليلٍ ، بدلاً مِنْ مَجىءِ السـيِّدَةِ زُبَيدة لِتَجلسَ فى الشُّـرْفَةِ المُخصَّصَةِ لها ، بعودَةِ « همدان » يحملُ بينَ يدَيْهِ تاجًا رائـعَ الجَمالِ مِنَ الذَّهَـبِ الخالِصِ المُرصَّـعِ بِالمـاسِ واللُّؤلؤ ، لكِنْ هناكَ فَجْوَةٌ كبيرةٌ خالِيَةٌ عند مُقدِّمتِهِ فى حَجْمِ بَيْضَةِ الدَّجاجَةِ !

سأَلَ الخَليفَةُ الغُلامَ فِى دهشَةٍ : « هَلْ أرسَلَتْ سيِّدتُكَ بدلاً منها ، التاجَ الذى طلبْتُ صُنْعَهُ هديةً لهَا ؟! »

أجابَ الغُلامُ : « سَـيِّدَتى كانَتْ تَودُّ الحُضورَ يا مولاى ، وهدِيَّتُكَ الكَريمَةُ تُزيِّنُ رأسَـها ، لكنَّ الصائغَ أعادَهُ منذُ قليلٍ معَ رسـالَةٍ تقُولُ إنهُ لم يعثُرْ على جَوْهَرةٍ كَبيرَةٍ تُناسِبُ مَكانهَا عندَ مُقدِّمَةِ التاجِ » !

وفَهِمَ الخَليفَةُ أَنَّ زُبَيْدَةَ تُعاتِبُهُ لانْشِغالِهِ عَنْ مُتابَعَةِ إتمامِ صُنْعِ هَديتِهِ إليهَا ، فأشارَ بِيَدِهِ لِيتوقَّفَ الاحتفالُ ، ولَمْ يسمحْ باستئنافِهِ



إلا بعدَ أَنِ اسْـتَدْعَى الحُجَّابَ والمُسـاعِدينَ ، وطلـبَ مِنْهم البحثَ بِسُرْعَةٍ عَنِ الجَوْهَرةِ المَطْلوبَةِ .



وانتظرَ كَبيـرُ الحُجَّابِ حتَّى انتهَى الاحتفالُ ، فاسـتأذنَ لِيُخْبِرَ مَوْلاهُ أَنهُمْ سَـألوا التُّجَّارَ والخُبرَاءَ وبَحَثُوا عنـدَ الصَّائِغينَ وجامِعى التُّحَفِ ، فلَمْ يَجِدُوا الجَوْهرةَ الَّتِى تناسبُ مكانهَا فِى التَّاج .

امتلأَتْ نفسُ الخليفةِ بضيق شَـديدٍ عَبَّرَ عنهُ غاضِبًا : « كيفَ أكونُ سُلطانَ أعظم دولةٍ فى العالَم وَأَفشلُ فى الوصولِ إلى جَوْهَرَةٍ » ؟!

قـالَ كَبيرُ الحُجَّابِ : « إذَا كُنَّا لَمْ نعثُرْ عليهَا فِي بغدادَ يا مَوْلاى فقدْ نَجِدُها فِى البصْرةِ .. أخْبَرَنى شَهْبندر التُّجَّـار أَنَّ الأمَـلَ الوَحيدَ فِـى الوُصُـولِ إلى الجَوْهَـرَةِ لَنْ يكونَ إلا عندَ رجلٍ واحـدٍ منْ أغنياءِ البصرةِ اسمُهُ « عبدُ السلام الكَسْلانُ » .

وَفِى الحَـالِ أمـرَ الخَلِيفَةُ « مسـرورَ السَّـيَّاف » حارسَهُ الخاصَّ بالتوجُّـهِ فورًا إلى مَدينَةِ البصْرةِ ، الميناءِ الرئيسِـىِّ للعراقِ ، على ألاَّ يعودَ إلاَّ فِى صُحْبَتِهِ ذلكَ الرجلُ .

٢ أعْجَبُ حِكايةٍ

بِمُجرَّدِ عَوْدَةِ مسْرور منَ البصرةِ تَوجَّه فَوْرًا لِمُقابلَةِ مولاَه .. قالَ : « أحضـرْتُ الرجلَ مَعِـى وهـوَ ينتظرُ الإذنَ للوقُوفِ أمامَكُم ، لكنْ مَا رأيتُهُ عندهُ يفوقُ كلَّ وَصْفٍ .. »

سألَهُ الخليفةُ مُستنكِرًا : « لم أتعوَّدْ منكَ المُبالَغَةَ يا مَسْرور » !

قالَ مسرور : « لسْتُ أبالغُ يَا مَوْلاى .. إنه لَيْسَ غنيًّا فقطْ ، بلْ هُوَ أغنَى الأغنيـاءِ .. ليسَ هنـاكَ أفخـمُ مِـنْ دارِهِ إلا قصرُ الخِلافةِ ..

أطباقُ طعامِهِ كلُّها مِنْ ذهبٍ وسِـرْجُ حصانِهِ مُزيَّنٌ بالمَـاسِ واللُّؤلؤِ .. ملابسُـهُ جَديرةٌ بإمبراطورِ الصِّينِ .. حتى حوائطُ حمَّامِ دارِهِ مَكْسُـوَّةٌ بالرُّخامِ النادرِ الثمينِ المُطعَّم بالذهبِ والفضةِ » .

عندئذٍ سمحَ الخليفةُ بِدخُولِ الرجلِ أمامَهُ .

أبدَى « عبد السلام » عظيمَ احترامِهِ لِسيِّدِ البلادِ ، وعندما سمحَ له الرَّشيدُ بالجلُوسِ ، اختارَ مقعدًا جلسَ فى حرصٍ على حافتِهِ ، وَقَدْ سيطرتْ عليه هَيْبةُ الخلافةِ .

فلمَّا أذِنَ له الخليفةُ بالحديثِ ، قالَ فى ثقةِ مَنْ يحترمُ نفسَهُ قبلَ أَنْ يحترمَهُ الآخرونَ : « يا أميرَ المؤمنينَ ، جئتُ معى بهديةٍ ، هل تسمحُ لِى بإحضارِهَا » ؟



فلمَّا جـاءَ بهَـا غِلْمانهُ فِـى صناديقَ فَاخـرةٍ ، أخـرجَ عـددًا مِنَ التُّحَـفِ الغريبـةِ المُبْهِـرَةِ ، بينهَـا أشجارٌ مِـنَ الذهبِ ، أوراقُهَا زمردٌ أخضـرُ ، وثمارُهَا ياقوتٌ أَحمرُ ولؤلؤٌ أبيضُ .



قالَ عبدُ السلام : « مَولاى .. أَحمِـلُ إليكُـم هَـذِه الهدايا لا خـوفًـا مِـنْ ذنبٍ وَلَا طمعًـا فِـى مُكَافـأةٍ ، لكننـى رجلٌ بسيطٌ لا تُناسِبُنى مثلُ هذِه التُّحَفِ .. إنهَـا جديرةٌ - فقطْ - بمولاى السلطَانِ الأكْبر » .

تَعجَّبَ الرَشيدُ أشَدَّ العجبِ فسألَ عبدَ السلام :

« مِنْ أينَ لكَ كلُّ هذَا ، والناسُ لا تعرفُكَ إلا بلقبِ « الكَسْلانِ » ؟! كمَا أَخبرونِى أنَّ والدَكَ ظلَّ طَوالَ حياتِهِ حلاَّقًا ولم يتركْ ميراثًا » ؟!

عندئذٍ سمعَ الخليفةُ أعجبَ حكايةٍ يُمكِنُ أَنْ يسمعَها إنسانٌ .

٣ الطبيبُ يُؤنِّبُ والِدَتى

قالَ عبدُ السلام الكسلانُ :

صحيحٌ ما بلغَكَ يا مولاىَ منْ رحيلِ وَالِدى عَـنِ الدنيَا وأَنَا صغيرٌ لَمْ أتجاوزِ الخامسـةَ ، وهـوَ لَا يملكُ مـالاً ولا عقـارًا ، فقـدِ اشتغـلَ

حلاَّقًا فقيرًا فى حمَّام عمومِيٍّ .

وَحتَّى الآنَ يَعرفُنىَ الناسُ باسـمِ « الكَسْلان » ، فَفِى طُفولتِى كنتُ أكثرَ الناسِ كسـلاً . ووصلَ بى الكسـلُ أنى إذَا نِمْتُ يومًا فوقَ سـطح بيتِنـا فـى يـومٍ مـن أيامِ الحرِّ ثم غمَرتْنى أشِعَّةُ الشمسِ ، أكسـلُ ولا أنتقلُ إلى الظلِّ .

أيةُ حركةٍ أقومُ بها تُسبِّبُ لى آلامًا فى كلِّ أجزاءِ جسمِى ، وأشعرُ بأعضَائى مُفكَّكةً فلا أقدرُ على بذلِ أىِّ مجْهودٍ .

وكُلَّما تحدَّثْتُ إلى وَالدتى عمَّا أعانِى تنهرُنى وتقولُ :

« أنت تُبرِّرُ كسلَكَ .. قِلَّةُ حركتِكَ سببُ آلامِكَ .. »

عندئذٍ قرَّرْتُ تحمُّلَ آلامى صامتًا والتوقُّفَ عَنِ الشَّكْوى ، وَلَمْ تعدْ لِى حيلةٌ فِى تغييرِ لقبِ « الكَسْلانِ » الذِى عرفَنى به أهلُ البصْرةِ .

وذاتَ يَوْمٍ جاءَ طبيبٌ عالِمٌ ليُعالِجَ جارًا لنَا منْ أصدقاءِ طُفولتِهِ ، فقالَتْ والدتى : « قُمْ مَعِى نذهْبُ إليهِ لعلَّهُ يعرفُ سببَ كسلِكَ » .

لكننى تكاسَلْتُ عنِ القيام معَها ، فأقْسَمَتْ إذَا لَمْ أخرجْ معهَا فلنْ تُطعِمَنى أو تسقِيَنى ولَنْ تستجَيبَ لأىِّ نداءٍ منِّى ، بل ستتركُنى أموتُ جوعًا وعطشًا !



وخشـيتُ أن تُنفـذَ وعيدَهـا ، فطلَبْـتُ منها مُسـاعَدتى لأقعدَ ، فأقعدَتْنى وَدمُوعى تنحدرُ لمَا أُحِسُّ به منْ آلام ، ثم رجَوْتُها إحضارَ ما أنتعلُهُ ، فجاءَتْ به . وَأَنْ تعاوِنَنى لوضعِهِ فى قدمىَّ ، ففعلَتْ .

ثـم قُلْـتُ : « احْمِلينِـى لِكَـىْ تَرْفعينـى مِـنْ فَـوْقِ الأَرْضِ » ، فرفعتْنى .

طلبْتُ منها : « اسْندينِى لأمشِىَ » ، فأسندَتْنى حَتَّى خرَجْنا وأنَا أكادُ أقعُ مَعَ كلِّ خطوةٍ .

وَمَا إِنْ دخَلْنا بيتَ جارِنَا حتَّى سقطْتُ على الأرضِ كأننى كيسٌ من الثيابِ الباليةِ !!

سأَلَ الطبيبُ : « مَنْ هذَا » ؟

قـالَ له أهلُ الدارِ : « هذا جارُنا عبدُ السـلامِ الكَسْـلانُ .. لم نرَهُ يخرجُ أبدًا من بَيْتِهِ إلاَّ هذهِ المرةَ » .

أثـارَتْ حالتى انتباهَ الطبيبِ ، فاسـتمعَ مـنْ والدتى إلى مَا كانَتْ تُسَمِّيهِ « كَسَلِى » ، ففوجِئَتْ بالطبيبِ يقولُ لها فى تأنيبٍ :

« كيـف تنسبـونَ حالـةَ ابنـكِ كلَّ هـذه السنـواتِ إلـى الكسلِ وحدَهُ ؟! هذَا الذى تُسمُّونَهُ كسلاً هو علامَةٌ خطيرَةٌ من علاماتِ مرضٍ فى الأعضـاءِ الداخليةِ .. اتركيه هنا عندَ أصدقائى وسـأُعطيهِ الدواءَ والغذاءَ المناسـبَيْنِ ، ثم أتابعُ أثـرَ علاجى ، فهذا مرضٌ أريدُ وَصْفَهُ وبيَانَ أثرِ علاجى له فى كتابٍ أقومُ بتأليفِهِ عن مختلفِ الأمراضِ » .

لَنْ أنسَـى فَضْلَ هذَا الرجلِ الجليلِ ، فمعَ كُلِّ علمِهِ وشـهرتِهِ كانَ

يقضِى الساعاتِ يُعطينى الدواءَ فى مواعيدَ معلومةٍ ، ويعاونُنى لأتناولَ أَطعمةً اختارَها بعنايةٍ ومشروباتٍ أعدَّها فِى دقَّةٍ وصبْرٍ .

لو كنْتُ ابنَهُ لما بذلَ له مِنَ اهتمامٍ أفضلَ ممَّا أَعْطَانِى !

ولَمْ يتركْنا إلا لضرورةِ السفرِ ، بعْدَ أَنْ بدأَتْ آلامى تخفُّ وَكَسَلى يزولُ واستَعَدْتُ قُدرتى عَلى تحريكِ أعضَائى ، وَالاعتمَاد عَلى نفسِى للخروجِ وَحْدِى مِنْ بيتِنَا .



٤ خَمْسَةُ دراهِمَ

عندَما بدأتُ أخرجُ ، أثارَ انتباهى سـيدةٌ عجوزٌ رأَيْتُها مُلقاةً فوقَ فِراشٍ قديمٍ ، بجوارِ بيتٍ عندَ نهايةِ الطريقِ الَّذى نسكنُ فيهِ .



سـألْتُ جيرانَهَـا فعرفْتُ أنهَا مُصابةٌ منذُ سـنواتٍ بشـلٍ أقعدَها عَـنِ الحركـةِ ، بينمـا أبناؤهَا قَدْ شـغلَهم عنهَا عملُهـم فِي أماكنَ بعيدةٍ .

عندئذٍ قرَّرْتُ رَدَّ جميلِ الطبيبِ الَّذِي عاونَنى عَلى الشفاءِ .. سأُصبحُ كَابنٍ لهذهِ السـيِّدةِ .. اسـتعنْتُ بجيرانِهَا لنقلِهَا منَ الشـمسِ إلَـى الظلِّ ، ومـنْ خَارجِ بَيْتِهَا إلَى داخلِهِ .. تعلَّمْتُ كيفَ أسـقيهَا الماءَ وأناولُهَا الطعامَ .. عرفْتُ طريقةَ الاستجابةِ لمختلفِ احتياجاتِهَا .

وعَندَمـا رأى الجيـرانُ مدَى التَّفانـى الذِى أبذلُه فِـى خدمتِهَا ، ساعدَنى كلُّ واحدٍ بِقَدْرِ مَا يستطيعُ .

وظَللْـتُ أعملُ جهدِى للتخفيـفِ عنْ تلكَ السـيدةِ ، حَتَّى وصلَتْ حياتُها إلى نهايتِهَا بعدَ عِدَّةِ شهورٍ .

وقبلَ رَحِيلِها بأيامٍ قليلةٍ كشفَتْ لِى عنْ سرِّها الوحيدِ ..

أخبرَتْنى أنَّ كلَّ ماً احتفظَتْ به مِنْ نقودٍ قد خبَّأَتْهُ فى حَشْوِ فِراشِهَا المُتهالـكِ ، ولأنَّنى أخلصْتُ فِى اهتمامِـى بهَا ، فهى تتركُ لِى بعدَ وفاتِها جميعَ ما أجدُه هناكَ .

لَمْ أتوقَّعْ معَ فقرِهَا العثورَ على شَىْءٍ كثيرٍ ، ومعَ ذلكَ فإنَّ المفاجأةَ فِى النهايةِ كانَتْ كَبيرَةً ..

لَمْ أجدْ إلَّا « خمسةَ دراهِمَ » فقطْ كانَتْ كلَّ ما تركَتْهُ ، لكنَّ حالتَها العقليةَ فى نهايةِ أيامِهَا ، صوَّرَتْ لهَا دراهمَها القليلةَ عَلى أنهَا ثروةٌ تمنحُنِى إيَّاهَا ! !

٥ شَىْءٌ من الصِّينِ

رجعْتُ بالدراهم الخمسَةِ إلى وَالدَتِى .

كانَتْ عائدةً لتوِّهَا من عملِهَا فِى بَيْتِ أحدِ أغنياءِ التُّجَّارِ .

مَا إِنْ سمعَتْ منِّى قصةَ الدراهمِ الخمسةِ حتَّى قالَتْ فِى حماسٍ :

« هذه نقودٌ قليلةٌ ، بل قليلةٌ جدًّا ، لكنهَا جاءَتْ بعدَ عملٍ مُخلِصٍ صَادقٍ .. هِىَ نقودٌ مُبارَكةٌ .. سمعْتُ ممَّنْ كُنْتُ أعملُ اليومَ فى بيتِهم أَنَّ التاجرَ المشهورَ الشيخَ « عبدَ الظافرِ » اعتزمَ السفرَ إلى الصينِ ، وستُغادرُ سفينتُهُ الميناءَ فجرَ الغدِ .. هذا الشيخُ مِنْ أهلِ الخَيْرِ ويُحِبُّ الفُقَراءَ ، ويتفاءلُ فِى سفرِهِ بِكُلِّ خدمةٍ يُقدِّمُها إليْهم .. خُذْ هَذِهِ الدراهمَ الخمسةَ وتعالَ نذهبْ إليه نطلبْ منه شراءَ شَىْءٍ لكَ مِنَ الصينِ ، إذا بِعْناهُ قدْ نحصلُ عَلى بعضِ الربح » .

توجَّهْتُ معَ والدتِى إلىَ شاطئِ البحرِ ، فسلَّمْنا عَلى الشيخِ وسألْتُهُ :

« يا عَمِّ .. هَلْ تسمحُ مشاغلُكَ أَنْ تهتمَّ بطلبٍ صغيرٍ لصبىٍّ فقيرٍ يحتاجُ إلى معونتِكَ » ؟

أجابَ فى ترحيبٍ أبَوِىٍّ : « اذكرْ حاجتَكَ وبإذنِ اللهِ أستطيعُ معاونتَكَ » .

قلْتُ : « خُذْ يا عَمِّ هذه الدراهمَ القليلةَ ، واشترِ لى بهَا شيئًا مِنْ بلادِ الصِّينِ ، لعلَّ اللهَ يجعلُها سببًا لربحٍ يُعينُنى أنا وَوالدتِى عَلى الحياةِ » .

لم يسخرِ الشيخُ من ضآلةِ المبلغ ولا من صِغرِ سِنِّى وفقْرِى ، بَلْ سألَ أصحابَهُ الذينَ التفُّوا حولَهُ : « هَلْ تعرفونَ هذَا الشابَّ » ؟

قَالُوا : « هوَ مَشهورٌ باسمِ « عبدِ السلام الكَسْلانِ » ، لكنه تركَ الكسلَ أخيرًا ، ورعَى بإخلاصٍ شئونَ سيِّدةٍ عجوزٍ مريضةٍ ، حتى أصبحَ قُدوةً نحكِى عنهَا لأبنائِنا » .



عندئـذٍ مدَّ الشـيخُ يدَهُ وتَنـاوَلَ الدراهمَ وهو يقـولُ فى إعجابٍ :
« باركَ اللهُ فيكَ وَفِى دراهمِكَ يا عبدَ السلامِ .. »

٦ أوَّلُ الأرباحِ

سـافرَ الشيخُ على سـفينتِهِ المُحمَّلةِ بالبضائعِ ومعه جماعةٌ كَبيرَةٌ من التُّجَّـارِ . وبعدَ مواجهةِ عواصفِ البحرِ وغَضَبِ المُحيطِ أسـابيعَ طويلَةً ، وصلُوا إلِىَ الصينِ .



وتَنقَّلُوا منْ ميناءٍ إلى ميناءٍ عَلى شواطئِ ذلكَ البلدِ الغنِىِّ العريقِ ، يبيعـونَ بربـح كبيرٍ مَا جلبُـوهُ مَعَهُم مـنْ منتجاتِ بـلادِ الخلافةِ ومصنوعاتِها الدَّقيقةِ ، ويشترونَ كلَّ غريبٍ وعجيبٍ ممَّا يتنافَسُ عليه الأثرياءُ فِى بلادِ الخليفةِ العظيم .

وبعـدَ أن وفَّقَهـم اللهُ فِى بَيْع مَـا أَحْضروا أَخذُوا يَمْلئُون السَّـفينةَ بمَا اخْتَاروا من تُحَفٍ مُرتفِعَةِ القيمةِ خفيفةِ الوزنِ، بدءوا رحلةَ العودةِ .

سـارَتْ بهم السـفينةُ ثلاثةَ أيام عصيبةٍ ، واجهَتْ خلالَها عاصفةً رَعديّةً مُمطِرةً شـديدةً ، مزّقَتْ قُماشَ أكبرِ شِـراعٍ ، وغمرَتِ السفينةَ بالماءِ أكثرَ مِنْ مرَّةٍ ، وكادَتْ تقلبُها ذاتَ مساءٍ .

وعندَ صباحِ اليَوْمِ الرابعِ فُوجِئَ التُّجَّارُ بِالشَّيْخِ « عبدِ الظافرِ » يُعلِنُ لهم قرارًا خطيرًا شَديدَ الغرابةِ :

« لابدَّ مِنَ العودةِ إلى شواطئِ الصينِ » !

صاحُوا جميعًا فِى احتجاجٍ غاضبٍ :

« ليـسَ هناك ما يُبرِّرُ هـذَا القرارَ الغريبَ الَّذِى يُعرِّضُنا لمخاطرَ مُهلِكَةٍ » !

قالَ الشـيخُ فى تصميم : « شَـغَلَتْنا حسـاباتُ الرِّبْح والخسارةِ عَنْ فعلِ الخير .. اللهُ عـزَّ وجَلَّ لَنْ يغفرَ لنَا نسيانَ الفُقَراءِ ، ونحنُ نسعَى لزيادةِ أرباحِنَا » !

قالُوا فِى صوتٍ واحدٍ : « لم ننسَ شيئًا » !!

قـالَ الشيخُ وهـو يشعرُ بتأنيبِ الضَّميرِ : « بلْ ضاعَتْ مِنْ ذاكرتِنَـا الرسالةُ التى حملْناهَا منَ الشابِّ عبدِ السلامِ الكَسْلانِ » !

صاحَ واحدٌ من التُّجَّارِ كانَ أكثرَهم سُخْطًا :

« نرجعُ كلَّ مَا قطَعْناهُ مِنْ هَذِهِ الرحلةِ الخطرةِ لأجْلِ خمسةِ دراهمَ تافهةٍ ؟!

ثلاثةُ أيام للعودةِ إلى الصينِ ، وثلاثةٌ مثلُها لنعودَ إلى موضعِنَا هذا فى سبيلِ ماَ يُساوِى ثمنَ خمسةِ أرغفةٍ مِنَ الخبزِ ؟!

هذا شَىْءٌ لَنْ يرضَى عنهُ أحدٌ » !

قالَ الشيخُ فى صوتٍ حاسم :

« إهمالُ الفُقَراءِ مجلبةٌ للَحظِّ السَّيِّئِ .. الوعدُ وعدٌ حتَّى لو تَعلَّقَ الأمرُ بدرهم واحدٍ ! .. تذكَّروا .. نحنُ نواجِهُ غدرَ البحرِ .. لا مفرَّ مِنَ العودةِ » !

عندئذٍ تأكَّدَ بقِيَّةُ التُّجَّارِ منْ تصميمِ الشيخِ عَلَى قرارِهِ ، فاجْتمعُوا وتشاوَروا ، ثُمَّ أعلنُوا قرارَهم للشيخ :

« خُذْ مِنَّا أضعافَ أكبرِ ربحٍ تتوقَّعُ أَنْ تُحقِّقَهُ الدراهمُ الخمسةُ ، لكنْ دَعْنا نواصلُ طريقَنَا » .

فِى تصميم قالَ الشيخُ وهو يضعُ صندوقًا كبيرًا أمامَهم :

« ادفعُوا الآن لحسابِ الكَسْلانِ مَا ترضَى عنهُ ضمائرُكُم » .

وَفِى الحالِ تَجَمَّعَتْ فِى الصندوقِ أموالٌ طائلَةٌ تُساوِى فِى نظرِ مَنْ دفعُوها مَا يُعادِلُ تفادِىَ ستةِ أيام من أخطارِ البحرِ وأهوالِهِ ، وهى أخطارٌ لا يُقَدِّرُ مدى الرعبِ الذى تُثيرُهُ ، إلا مَنْ عانَى الصراعَ لأجلِ الحياةِ أثناء الإبحارِ ستةَ أيامٍ فِى بحرٍ هائجٍ !



٧ قِرْدٌ مَنْتوفُ الشَّعْرِ

واصلَتِ السفينةُ سَيْرَها حتى اقتربَتْ من جزيرةٍ مزدحمةٍ بالسُّكَّانِ ، رَسَتْ عندَها ونزلَ التُّجَّارُ إلى شاطئِها ، حيثُ وجدُوا أهلَها يبيعون اللآلئَ ، فأخذُوا يختارونَ منهَا مَا يُعجِبُهم ويشترونَ .

أما الشيخُ عبدُ الظافرِ ، فقد صَحِبَ البحَّارَةَ إلى السوقِ لشراءِ أطعمةٍ طازجةٍ ، وهناك جذبَ انتباهَهُ رجلٌ يجلسُ وحولَهُ قرودٌ كثيرةٌ يبيعُها لأهلِ الجزيرةِ ، الذينَ يعتبرونَهَا حيواناتٍ أليفةً يلعبُ أطفالُهم مَعَهَا .

وجـذبَ انتباهَــهُ قردٌ مَنْتـوفُ الشَّـعْرِ يلتصقُ بالبائـعِ لا يفارقُ مجلسَهُ ، مَا إنْ ينشـغلْ صاحبُهُ معَ أحدِ المُشترينَ حَتَّى تنقضَّ بقيةُ القرودِ عليه تشدُّ شعرَهُ وتنتفُهُ ، فَيَقومُ صاحبُها بضربِهَا لإبعادِهَا عَنْهُ .

كانَ واضحًا رَفْضُ القرودِ للقردِ مَنْتوفِ الشعرِ ، تراهُ غريبًا عنهَا كأنهُ لا ينتمِي إلى نفسِ نَوْعِها .

والمُدهِـشُ أَنَّ القردَ المُضطَهدَ تنبَّهَ إلى اهتمامِ الشـيخِ به ، فأخذَ يُطيلُ النَّظَرَ إليه كأنمَا يستعطفُهُ أو يطلبُ إنقاذَهُ مِمَّا يُعانِى !

أشفقَ الشيخُ عبـدُ الظافـرِ عَلَـى ذلكَ القـردِ ، فاقتربَ مِـنَ البائعِ



يُبلِغُهُ عرضَهُ الذِى طرأ عَلى خاطرِهِ فى تلكَ اللَّحظَةِ :

« هَلْ تبيعُنى هذَا القردَ لصبىٍّ يتيم بخمسةِ دراهمَ » ؟

قالَ البائعُ فى مُحاوَلةٍ للمُساومةِ : « هذَا نصفُ الثمنِ الذِى أبيعُ به غيرَهُ مِنْ قرودٍ » .

تَمسَّـكَ عبـدُ الظافرِ بمَا عَـرضَ: « أُريـدُ إنقاذَهُ من عُـدْوانِ بقيةِ القـرودِ عليه ، كمَـا أعاونُكَ حتَّى تتفرَّغَ للزبائـنِ وتتوقَّفَ عَنْ ضَرْبِ حيواناتِكَ ».

ووجدَ الشيخُ أن البائعَ لا يزالُ يُفكِّرُ ، فأضافَ :

« ولَسْـتُ أظنُّ أحدًا سـيدفعُ فيهِ أىَّ ثمنٍ وهوَ يبدُو كالأجربِ بهذَا الشعرِ المَنْتوفِ » ! !

كانَتْ هذه الحجةُ حاسِـمةً ، فزالَ تـردُّدُ البائع وأعلنَ موافقتَهُ :

« بعْتُكَ هذا القردَ بالثمنِ الذِى عرَضْتَهُ، باركَ اللهُ فيه لمَنِ اشتراهُ ».

وتَسلَّمَ الشيخُ القردَ البائسَ ، فدهِشَ عندما وجدَهُ يُمسِكُ يدَهُ ويسيرُ إلى جوارِهِ شِبْهَ مُنتصِبِ القامَةِ ، فضحكَ وقالَ يتأمَّلُهُ :

« بقيةُ القرودِ تضطهدُكَ لتفوُّقِكَ عليهَا فِى الذكاءِ والفهْمِ ! .. الحالُ واحدٌ فى دنيا البشرِ وعالَمِ القرودِ » !

ثُمَّ طلبَ مِنْ بحَّارتِهِ رَبْطَ القردِ بحَبْلٍ يُثبِّتونَهُ إلى حلقةٍ فوقَ سَطْحِ السـفينةِ كَىْ لا تقذفَهُ الأَمواجُ إلى البحرِ ، أو ينزلقَ ويضيعَ فى الماءِ عندمَا تمِيلُ السفينةُ بشدَّةٍ معَ الأَموَاجِ .

ثم بدأ المَلاَّحونَ فى رَفْعِ شـراعٍ بعدَ شـراعٍ ، واسـتأنفتِ السفينةُ رحلتَهـا إلى جزيرةٍ أُخْرَى .

٨ إنه يستخرجُ اللؤلؤَ

كانَتْ أهمُّ حرفةٍ يقومُ بهَا أهلُ هَذِه الجزيرةِ الثانيةِ ، الغَوْصَ إلى قاعِ البحرِ لاستخراجِ اللُّؤلؤِ ، فقدْ تميَّزَتِ المناطقُ البحريةُ حولَهم بكثْرةِ الأصْدافِ التِى تحتوى عَلَى أَجْملِ اللآلئِ وأغلاهَا .

وَسُرعانَ مَا بدأَ بعضُ التُّجَّارِ يستأجِرونَ رجالاً يغطِسونَ لحسَابِهم ، فيكونُ كلُّ مَا يستخرجُهُ الرجلُ ملكًا لمَنِ استأجرَه .

ورغمَ ارتفاعِ أجورِ الغطَّاسينَ ، وجدَ التُّجَّارُ أنَّ ما يحصلونَ عليهِ مِنْ لؤلؤٍ مُتميزٍ بهذِهِ الطَّريقةِ ، لا يُكلفُهم نِصْفَ مَا دفعوهُ ثمنًا لشراءِ لآلئِ الجزيرةِ الأُولى .

وراقَبَ القردُ الغطَّاسينَ يقفزونَ إلى الماءِ ، ثم يطلعونَ بلآلئَ يُسلِّمونَها إلى التُّجَّارِ عَلى السفينةِ ، فيأخذُها هؤلاءِ وعلاماتُ الدهشةِ ترتسِمُ عَلى وُجُوهِهم .

ولم يتنبَّهِ الشيخُ عبدُ الظافرِ إلى تخلُّصِ القردِ مِنْ رباطِهِ ، ففوجئَ به يقفزُ منَ المركبِ إلى البحرِ ويختفِى تحتَ الماءِ .

صاحَ عبدُ الظافرِ فى أسفٍ : « يا للخسارةِ ! فقَدْنا القردَ الذى اشترَيْناهُ لِحسابِ الكَسْلانِ » !

لكنَّ دهشتَهُ كانَتْ طاغيةً هو وجماعةِ التُّجَّارِ كُلِّهم عندما ظهرَ القردُ بعدَ قليلٍ فوقَ سطحِ الماءِ وسطَ جماعةِ الغطَّاسينَ ، وَقدْ أمسكَ عددًا منْ أجْمَلِ اللآلئِ وأكبرِهَا ، أسرعَ يرميهَا أمامَ الشيخِ عبدِ الظافرِ .

وعندمَا رأَى القردُ علاماتِ الدهشـةِ علَى وَجْهِ الشـيخِ ، عادَ يقفزُ إلى الماءِ مع الغطَّاسينَ مرَّةً ومراتٍ ، ثم يصعدُ ومعَهُ كمياتٌ أكبرُ منَ اللآلئِ ، حتَّى تَجمَّعَ أمامَ الشيخِ مَا يملأُ كيسًا كبيرًا .

كانَ مـا جـاءَ به القـردُ وحدَهُ يعـادلُ كلَّ ما فازَ به بقيـةُ التُّجَّارِ مُجتمِعينَ !



صاحَ الشيخُ وقَدْ ملأهُ الإعجابُ :

« إنه رزقُ عبدِ السلامِ الكَسْلانِ ، وهذا القردُ سرُّهُ عظيمٌ » !

٩ رُعْبُ الاقترابِ من الجزيرةِ الثالثةِ

اكتفَى التُّجَّارُ بِمَا حصلُوا عليْهِ منْ لؤلؤٍ ، وحلَّ البحَّارةُ قلوعَ السفينةِ ، ودفَعتْها الرياحُ فِى طريقِ العودةِ .



لكـنَّ عاصفــةً عاتيةً فاجَأَتْهــم ، وظلَّتِ الأمواجُ تتقاذَفُ السـفينةَ يومًــا وليلتَيْنِ ، والبحَّارةُ لا يَهْدءون وهُمْ يُواجِهونَ البحرَ الغاضبَ ، يُنزِلونَ شـراعًا ويرفعونَ آخرَ ، لا يتوقَّفونَ عَنْ نَزْحِ الماءِ الذى يغمرُ السـفينةَ كُلَّما أفرغُوهُ ، ويُعيدونَ رَبْطَ كُلِّ شَـيْءٍ لتثبيتِهِ فى مكانِهِ ، فلَا تتلاعبُ به تقلُّباتُ المركبِ معَ الأمواجِ .



وعندمَا هدأَتِ العاصفةُ ، اكتشفَ رُكَّاب السفينةِ أَنهمْ فقدُوا قُواهُمْ وَطرِيقَهم .. ضاعُوا ولم يعُودوا يعرفونَ إلى أين تتَّجهُ سفينتُهم !

صاحَ واحدٌ منَ البحَّارةِ : « نرجُو منَ اللهِ السلامةَ ، فلَا نقتربُ مِنْ جزيرةِ صَيَّادِى الرؤوسِ » !

أسكَتَهُ الشيخُ عبدُ الظافرِ : « إذا كنتَ تطلبُ السلامةَ فلا تُلْقِ الفزعَ فى قلوبِ المُسافرينَ معنَا » !

لكنَّ صيحةَ الشيخِ لإسكاتِ ذلكَ البحَّارِ لَمْ تمنَعْهُ مِنْ تكليفِ بَحَّارٍ آخرَ بالصعودِ إلى قمةِ صَاريةِ الشراعِ الكبيرِ ، لمراقبةِ البحرِ حولَهم ، وإخطارِهِ فورًا بكلِّ مَا يراهُ ، كَىْ يبتعدُوا فِى الوقتِ المُناسِبِ عَنْ أيةِ جزيرةٍ تظهرُ عندَ الأُفقِ .

وتهامَسَ التُّجَّارُ يتساءلونَ فِى قلقٍ عَنْ حقيقةِ وجودِ « صيادِى الرؤوسِ » ؟

وبعيدًا عنْ سَمْعِ الشيخِ وبصرِهِ همسَ لَهُم بعضُ البحَّارةِ : « هُمْ قومٌ يكرهونَ الغُرَباءَ ويعتبرونَ كلَّ غريبٍ عَدُوًّا .. وعندمَا يقعُ مَنْ يسوءُ حظُّهم بينَ أيْدِيهم ، يحتفظُونَ بِهِمْ سُجَنَاءَ إلَى أَنْ يُقيموا حفلاً رهيبًا حولَ نارٍ عظيمةٍ ، يُلْقونَ إليها الأَسْرى مُقيَّدينَ واحدًا بعدَ الآخرِ ، يُراقِبونَ احتراقَهم ببطءٍ حتَّى الموتِ ، وهُمْ يرقُصونَ ويُغنُّونَ عَلَى دقَّاتِ الطُّبولِ كَأَنَّهم انتَصرُوا فِى حَرْبٍ .. »

كانَ الليلُ قد أقبلَ ، لكنَّ ضوءَ القمرِ أضاءَ بالكادِ سطحَ المُحيطِ المُترامِى .. ولم يذهبْ أحدٌ للنومِ .. كلُّهم كانُوا يترقَّبونَ مَا قَدْ تكشفُ عنه ظُلمةُ الليلِ .

وَاشـتدَّ خوفُهم عندمَا سَـمِعُوا البحَّارَ يصِيحُ مِـنْ أَعلى الصَّاريةِ : « هناكَ جزيرةٌ إلى يسارِنَا .. »

واندفـعَ البحَّـارةُ والتُّجَّـارُ يُدقِّقـونَ البصرَ ، فَرَأوا عَلى مسـافةٍ كَبيـرةٍ ، عَلى الرغـمِ منْ عدمِ وضُوحِ الرؤيةِ ، مَـا ظهرَ كأنهُ جزيرةٌ وسطَ الماءِ .



صاحَ الشيخُ عبدُ الظافرِ : « حولـوا الدفَّـةَ لنتجهَ إلى اليمينِ » .

وَبسُـرعةٍ نفَّـذَ البحَّارةُ الأمـرَ ، لكنَّ الشـيخَ لاحظَ فى قَلَقٍ أَنَّ السـفينةَ واصلَتِ اقترابَها مِنْ تلـكَ الجزيرةِ بدلاً منَ الابتعادِ عنهَا !!

قالَ كبيرُ البحَّارةِ وقدِ اشتدَّ قلقُهُ حتَّى أصبحَ انزِعَـاجًـا : « هنـاكَ تيـارٌ مائىٌّ يقودُ السفينةَ نحوَ هَذِه الجزيرةِ الغامضَةِ ، تساعدُهُ رياحٌ تهُبُّ فِى اتجاهِهَا » !

أمرَ الشيخُ بحَّارتَهُ : « أنْزِلُوا الأشرعةَ واستخدِمُوا المجاديفَ » .

وَسُرعانَ ما صَعِدَ بعضُ البحَّارةِ يُنزلونَ الأشرعةَ لوَقْـفِ أثرِ الرياحِ المُعاكِسةِ ، بينمَا اندفعَ بحَّارةٌ آخرونَ يستخدمونَ المَجاديفَ لمقاومةِ التيارِ المائِىِّ .. لكنَّ جهودَهم جاءَتْ مُتأخِّرةً !!

فى رعبٍ صاحَ البحَّارُ الذى يراقبُ البحرَ : « إِنهُمْ قَادِمونَ » !!

كانَتْ هناك نقاطٌ سوداءُ كثيرةٌ تتحرَّكُ ، سرعَانَ ما اكْتَشفُوا فِى فزعٍ أنهَا قواربُ طويلةٌ تقتربُ .. عشراتُ الزوارقِ الخَفيفةِ يُجدِّفُ فوقهَا مئاتُ الرجالِ الأشداءِ عُراةِ الأجْسام ..

وكانَتِ المسافةُ تضيقُ فِى كلِّ لحظَةٍ بينهَا وبينَ السفينةِ ..

١٠ صَيَّادو الرُّؤوسِ

صاحَ بحَّارٌ فِى رعْبٍ : « إنهم صَيَّادو الرُّؤوسِ » !

دفعَتْ هَذِهِ العبارةُ بقيةَ البحَّارةِ إلى بذلِ جهدٍ جُنونِىٍّ فِى التجديفِ آمِلينَ الابتعادَ بمعجزةٍ عَنِ الزوارقِ الزَّاحفةِ ! ..

لكنْ .. لا فائدةَ .. السفينةُ بغيرِ شراعٍ أبطأُ كثيرًا منَ القواربِ ، وعددُ مَنْ يُجدِّفونَ فوقَ كُلِّ قاربٍ يتساوَى مَعَ عَددِ بحَّارةِ الشيخِ عبدِ الظافرِ كلِّهِم !

وقبلَ أنْ يُدركَ البحَّارةُ والتجَّارُ حقيقةَ مَا يحدثُ ، كانَتِ الزوارقُ قَدْ أحاطَتْ بِهِمْ ، وبدأ العُراةُ يقفِزونَ فِى مثلِ مهَارةِ القِردةِ وخِفَّتِها ويتعلَّقونَ بجوانبِ السفينةِ .

تركَ البحارةُ التجديفَ ، واندفَعوا معَ التُّجَّارِ يحاولونَ إبعادَ المُهاجمينَ ، مُستخدِمينَ كُلَّ مَا وصلَ إلى أيْدِيهم مِنْ أسلحةٍ ومجاديفَ .

لكنَّ الرجالَ العُراةَ تَكاثَروا كالنملِ فوقَ ثمرةٍ حُلوةٍ ، وامتلأَ بِهِمْ سطحُ السفينةِ بسرعَةٍ عَجيبةٍ ، وانتشَروا يُفتِّشونَ كُلَّ ركنٍ فيهَا .

وبعدَ معركةٍ قَصِيرةٍ حَسـمَتْها الكثرةُ ، وجدَ كلُّ التُّجّارِ والبحّارةِ أنفسَهم مُقيَّدينَ بقَسْوةٍ ، تلتفُّ حولَهم حبالٌ مجدولةٌ مِنْ أليافِ الشَّجرِ ،



والرجالُ العُراةُ يتسابقونَ لنقلِهم إلَى زوَارِقِهم ، يُلقونَ بهم إليهَا كأنهُم أكياسُ بضائعَ ، فأصابَتِ الكُسورُ والرضُوضُ عظامَ مُعْظَمِهم .

ثم انطلقَتِ القواربُ إلى شـواطئِ الجزيرةِ ، يحملُها التيارُ السَّارِى وسطَ ماءِ المُحيطِ .

وكأنمَـا لإلقـاءِ الرعبِ فِـى قلوبِ الأَسْرى وإدخـالِ اليـأْسِ إلَـى

نفوسِـهم ، قادَهم صيّادو الرُّؤوسِ منَ الشاطئِ إلى مقرِّ زعيمِهم فى طريـقٍ ضيقٍ امتلأ على الجانبيْنِ بأكوامِ عظامٍ وجماجمَ بشـريةٍ بيضاءَ مِنْ أثرِ النارِ .

وأمرَ زعيمُهم بحبْسِ كلِّ أسـيرٍ مُقيَّـدًا فى قفصٍ مَتِينٍ مَصْنوعٍ مِـنْ فروعِ الأشجارِ ، استعدادًا لإقامةِ « حفلِ الانتصارِ » مساءَ اليومِ التَّالى .

لـَمْ يُغْمِـضْ جفنٌ لأىِّ تاجـرٍ أو بحَّارٍ ، وهُمْ يتصـوَّرونَ فِى رعبٍ نهايَتِهـم البشـعةَ التِى اقتربَتْ ، بينما نامَ أهـلُ الجزيرةِ يحلمونَ بنارِهم القاتلةِ فِى اليومِ التالى !

(١١) ثمنُ النجاة الغالى

شـىءٌ واحـدٌ لم يخطرْ على ذهـنِ صيَّادِى الـرؤوسِ .. وجَّهوا كُلَّ اهتمامِهـم إلى « الأعداءِ » مِنَ البشـرِ ، وأغفلُـوا الحيواناتِ ، لذلكَ لَمْ يتنبَّهوا إلى وجودِ القِرْدِ ! ..

فعندمَا انقضَّ العُراةُ يحتلُّونَ السـفينةَ ، انتقلَ إلى القردِ الشـعورُ بالفزعِ الذِى اجتاحَ أصحابَهُ ، فأسـرعَ يتسـلَّقُ صارِىَ أعلَى شـراعٍ ، وتشبَّثَ بمكانِهِ المُرْتفعِ لا يتحرَّكُ .

وعندمَـا بدأتِ الزوارَقُ تندفـعُ بأصحابِـهِ إلـى الشاطئِ مُقيَّدينَ ، تبعَها سـباحةً لا يلفتُ انتباهَ أحدٍ ، فضوءُ القمرِ الشـاحبُ لاَ يكفِى لكشفِ قردٍ صغيرٍ يسبحُ فِى هدوءٍ عَلى سطحِ المُحيطِ الواسعِ .

ومِـنْ بَيْنِ أغصانِ أشجارِ الجزيرةِ التِى راحَ يتنقّلُ فوقَها بهـدوءٍ ، استطـاعَ مُراقَبَـةَ مَـا يحـدثُ ، وتابَعَ الشيخَ « عبدَ الظافرِ » فعرفَ

مكـانَ القفصِ الذِى حبسُوه فيهِ . كمَا رأَى كيفَ أغلقَ رجالُ الجزيرةِ تلكَ الأقفاصَ بوسيلةٍ بدائيةٍ ، تجعلُ منَ السَّهلِ فتحَها مِنَ الخارجِ ، لكنْ يصعُبُ عَلَى مَنْ يكونُ داخلَ القفصِ فتحُهُ .

وعندمَا سادَ هدوءُ الليلِ الجزيرةَ إلا مِنْ صوتِ نحيبِ بعضِ التجارِ وبكائِهِمْ ، تَسلَّلَ القردُ فى صمتٍ إلى بابِ قفصِ الشيخِ ، وفتحَ بابَهُ . ولم يسـتغرقِ الأمرُ لحظاتٍ قليلةً حتَّى كانَ القردُ يقفُ بجوارِ الشيخِ المُلقَى عَلَى ظهرِهِ فوقَ أرضِ القفصِ .

وخـلالَ دقائقَ فكَّ قُيودَ الشـيخِ ، وحرَّرَهُ منَ الحبالِ الغليظةِ الَّتِى أحاطَتْ بهِ فِى إحكامٍ ، وسـبَّبَتْ له آلامًا لا تُطاقُ . كانَ الألَمُ قد امتدَّ مِـنْ أطـرافِ الأصابعِ إلى بقيةِ الذراعِ ، بسـببِ متانـةِ الرباطِ حولَ اليدَيْنِ والسـاعدَيْنِ .. ومع أنَّ الشيخَ لم يستوعبْ بسـهولةٍ حقيقةَ المعجزةِ الَّتِى حرَّرَتْهُ ، فقد تَسلَّلَ بهدوءٍ إلى بقيةِ الأقفاصِ يُطَمْئِنُ مَنْ فيهَا ، ويُنبِّهُـهم إلى ضرورةِ الحرصِ على التمسُّـكِ بالصَّمتِ استعدادًا للخلَاصِ .

همسَ التجارُ للشيخِ : « أنقِذْنا كما أنقذْتَ نفسَكَ يا شيخُ » !

أجابَهم : « لم يُخلِّصْنى بإرادةِ اللهِ تعالى إلا هَـذَا القِردُ .. أنَا لمْ أعدْ قادرًا عَلى اسْـتخدامِ أَصَابعى .. خصَّصْتُ للقردِ ألفَ دينارٍ ذهبًا لأنهُ سببُ نجاتِى منْ موتٍ مُؤكَّدٍ » . قالَ التجارُ للشـيخِ : « ونحـنُ مثلُكَ .. كلُّ واحـدٍ يُخصِّصُ له ألفَ دينارٍ ذهبًا إذا خلَّصَنَا » !



وَلَمْ ينتظر القردُ وعُودَهم ..كانَ يعملُ بجدٍّ وسرعةٍ عَلَى فتحِ أبوابِ الأقفاصِ وفَكِّ قيودِهم .. وكَمْ شعرَ الشيخُ بالأسفِ لأنه لم يستطعِ المشاركةَ بيدَيْهِ فِي إنقاذِ البحارةِ والتجارِ ، لكنَّ مهارةَ القردِ وسرعتَهُ حققَتْ نتائجَها العجيبَةَ ، فَلَمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّى كانَ قد حرَّرَهم جَمِيعًا .

وَفِي هُدوءٍ حملَ السليمُ مِنْهم المُصابَ ، وتَسلَّلَ الجميعُ إلى الشاطئِ ، حيثُ عَثروا عَلى زوارقِ الرجالِ العُراةِ عندَ حافةِ الماء لا يحرسُها أحدٌ .. كانَ المُتوحِّشونَ مُطمئِنِّينَ إلى مَتَانةِ أقفاصِهم ، فلَمْ يسبقْ أَنْ نجحَ أحدُ أَسْراهم فى الإفلاتِ مِنْ مَحَارقِهم .



وَفِـى صمْتٍ نزلَ المُسَـــافِرونَ إلـى تلك الزوارقِ وجَدَّفوا بنشـاطٍ إلى سفينتِهم ، حيثُ وجدوهَا لمْ ينقصْ منهَا شيءٌ .

وتَبادَلَ القادرونَ منَ البحّارةِ والتجّارِ التجديفَ بقوةٍ ، فَلَمْ تُشرقْ شمسُ الصباحِ التَّالِى إلاَّ وقَدْ ابتعدُوا مسَافاتٍ كبيرةً عَنِ الجزيرَةِ المشْئُومةِ .

جمعَ الشيخُ التجارَ وقالَ لَهُم وهُوَ يتنهَّدُ فِى ارتياح :

« الله منحَنا السلامةَ بسببِ هذَا القردِ ، وعلينا الوفاءُ له بما تعهَّدْنا بـه ، لعلَّ اللهَ يحفظُنا بعنايتِهِ بقيةَ الرحلَةِ حتَّى نعودَ سَـالمِينَ إلى البصْرةِ ».

وبغيرِ تردُّدٍ أخرجَ كلُّ واحدٍ منهم ألفَ دينارٍ ذهبًا ، فتجَمَّعَ للقردِ وصاحبِهِ عبدِ السلامِ الكَسْلانِ قدرٌ عظيمٌ جدًّا مِنَ المالِ .

١٢ ربحُ الدراهمِ الخمسة

تابعَ عبدُ السلامِ الكَسْلانُ حكايتَهُ :

« مَا إنْ لمسَـتْ قَدمُ الشـيخِ عبدِ الظافرِ أرضَ البصرةِ ، وَقَدِ اجتمعَ حولَهُ أصحابُهُ يُهنِّئونَهُ بسـلامةِ الوصُولِ ، حتَّى كنتُ أولَ مَنْ سـألَ الشيخَ عنه .. قالَ: أينَ أجدُ عبدَ السلامِ الكَسْلانَ » ؟

وعَرَفَتْ والدتى خبرَ سـؤالِهِ عنِّـى وهِىَ فِى بيتِ تاجرٍ كبيرٍ كانَتْ تساعدُ زوجتَهُ فِى بعضِ الشُّئونِ المنزليَّةِ ، فقالَتْ لى :

« الشيخُ عبدُ الظافرِ وصلَ على سَفينتهِ وهُوَ يسألُ عنكَ .. اذهبْ إلى بيتِهِ وسَلِّمْ عليه ، لعلَّ اللهَ تعالَى يكونُ قَدْ فتحَ عليهِ بشىءٍ لكَ » .

وعندما رآنى الشيخُ تهلَّلَتْ ملامحُ وجهِهِ ، وتلقَّانى بترحيبٍ حارٍّ لَمْ أفهمْ سببَهُ حتَّى بعدَ أنْ قالَ :

« أهــلاً بمَنْ كانَتْ دراهمُهُ سـببًا لنجَاتِى وخــلاَصِ جميعِ التجارِ الذينَ كانُوا مَعِى » .

قلْتُ لنفسِى وقد تصوَّرْتُ أننِى لَمْ أسمعْ جيدًا ما قالَ :

« كيفَ يُمكِنُ لخمسَـةِ دراهـمَ قليلـةٍ أنْ تكـونَ سببَ نجاةِ أكبرِ تَاجرٍ فِى البصْرةِ ، ومعهُ كلُّ التجَّارِ الذِينَ سَافروا عَلى سفينتِهِ ؟! .. والخلاصُ مِنْ أىِّ شىءٍ يا تُرَى » ؟!

وانتشلَنى الشيخُ مِنْ أفكارِى عندمَا أشارَ إلى شىءٍ التفَّ حولَ نفسِهِ فى ركنِ قاعةِ الاستقبالِ بدارِهِ الكبيرةِ ، وقالَ :

« خُــذْ هذَا القردَ فهو مِلْكُكَ ، اشتَريْتُهُ لكَ بدراهمِكَ الخمسـةِ .. اذهـبْ بـه إلى بيتِكَ حتَّى أجىءَ إليكَ .. إنهُ فى حَاجةٍ إلى عنايةٍ لَنْ يجدَهَا إلا معَكَ ! »

أصابَتْنــى خيبةُ أملٍ عندمَا خرجْـتُ أحملُ القردَ بين يدَىَّ ، بينمَا يتطلَّعُ هُوَ إلى وجْهِى يتأمَّلُنى بطريقَةٍ لَا أفهمُها ! !

« هــل يُمكِـنُ أنْ تكونَ هناكَ أيةُ علاقةٍ بيــنَ هذَا الحيوانِ الــذِى





لا يُجيدُ إلا تقليدَ حركاتِ الإنسانِ ، وبينَ « النجاةِ » التى يتحدَّثُ عنهَا الشيخُ عبدُ الظافرِ بكلِّ هذِه الحَرَارةِ » ؟!

عُدْتُ إلى الدَّارِ أقولُ لوالدَتِى سَاخرًا كَىْ أُخفِّفَ منْ شُعورِى بالإحْبَاطِ :

« هَلْ تعرفينَ شيئًا عَنْ تجارةِ القرودِ التِى لا سوقَ لهَا فِى بغدادَ » ؟!!

ووضعْتُ القردَ بيننَا وأنَا أُضيفُ وقدْ طغَى الضيقُ عَلى مَشَاعرى ، بينمَا والدَتِى لا تفهمُ شيئًا ممَّا أقولُ : « هذَا هُوَ الرِّبْحُ العظيمُ الذِى جاءَتْ به من الصينِ دراهمُنا الخمسةُ المُباركَةُ » !

وَكانَتْ والدَتِى بعدَ يومَيْنِ لا تَزالُ تبحثُ بغيرِ جدْوَى عَنْ كلماتٍ تُخفِّفُ بهَا مَا أصابنَا مِنْ إحساسٍ بضياعِ الأملِ ، مهمَا كانَ هذَا الأملُ مُتواضعًا ، عندما سمِعْنا طرقَاتٍ قويةً عَلى بابِ البيتِ .

قفزْتُ بسرعةٍ لأفتحَهُ ، ففوجئْتُ ببعضِ العاملِينَ فِى متجرِ الشيخِ عبدِ الظافرِ يسألوننى :

« هَل أنتَ عبدُ السلامِ الكَسْلانُ » ؟

فلمَّا أجَبْتُهم بالإيجابِ قَالُوا :

« سيِّدُنا عبدُ الظافرِ فِى الطريقِ إلى هنَا لزيارتِكَ ، وأرادَ التأكُّدَ مِنْ وجُودِكَ بالدارِ » .

سألْتُ نفسِى فِى حَيْرةٍ :

« مَا الذِى يحملُ الشيخَ الثَّرىَّ عَلى المجىءِ إلى بيتِى المُتواضِعِ ، وقد تسلَّمْتُ منه فعلاً مَا اشتراهُ بكامِلِ دَرَاهِمِى التَّعيسَةِ » ؟

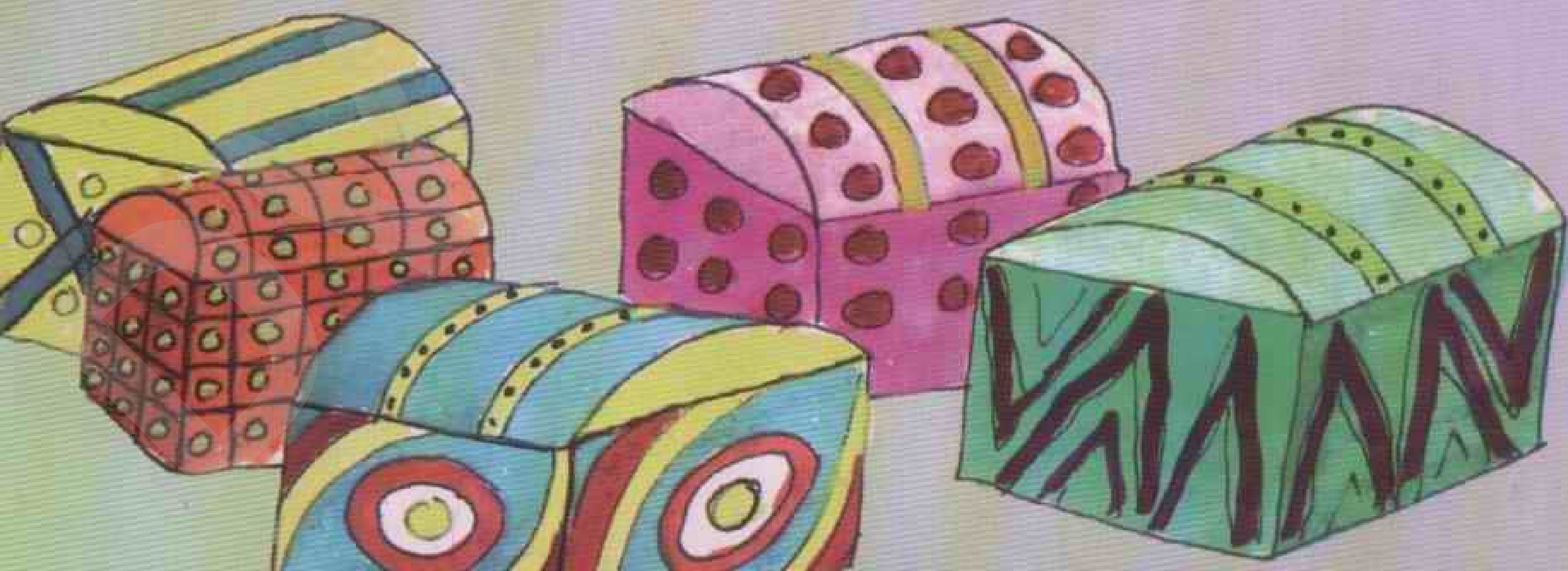
ووصلَ الشيخُ بنفسِهِ بعدَ قليلٍ ، فقمْتُ أُرحِّبُ به ..

قالَ : « هَيَّا مَعِى إلى دارِى » .

تبادلْتُ النظراتِ المُتسائلَةَ مَعَ أُمِّى ، فماذَا يُمكِنُ أَنْ أجدَ فى بيتِهِ إلاَّ عددًا آخرَ منَ القرودِ التِى أَصْبحَتْ كُلَّ حَظِّى ونصيبِى مِنْ سفرياتِ أكبرِ تاجرٍ منْ تُجَّارِ البصْرةِ إلى الصِّينِ ؟

١٣ عَشْرَةُ صناديقَ

جلسْتُ مُرتبكًا فى نفسِ قاعَةِ الضيوفِ الَّتِى سبقَ أَن استقبلَنِى فيها الشيخُ عندمَا سلَّمَنى « الأمانةَ الغاليةَ » التِى حملَها لى خِصِّيصًا طَوالَ الطريقِ مِنْ تلكَ البلادِ الأُسطوريةِ البعيدَةِ !



سمعْتُهُ يقولُ : « بالأمسِ فقط انتهَيْتُ منْ نقلِ مَا كانَ على السفينةِ إلى دَارِى » .

ثم أشارَ إلى بعضِ العَاملينَ عندَهُ ، وأمرَهم قائلاً :

« أحْضِروا الصناديقَ الخاصةَ بالسيِّدِ عبدِ السلام الكَسْلانِ » !

لَـمْ أفهـمْ ماذَا يقصدُ ، ولا عَنْ أيةِ صناديـقَ يتحدَّثُ ، ولا لمَاذَا ، للمرةِ الأولى ، يسبقُ اسمِى بلقبِ « السيِّد » ؟!

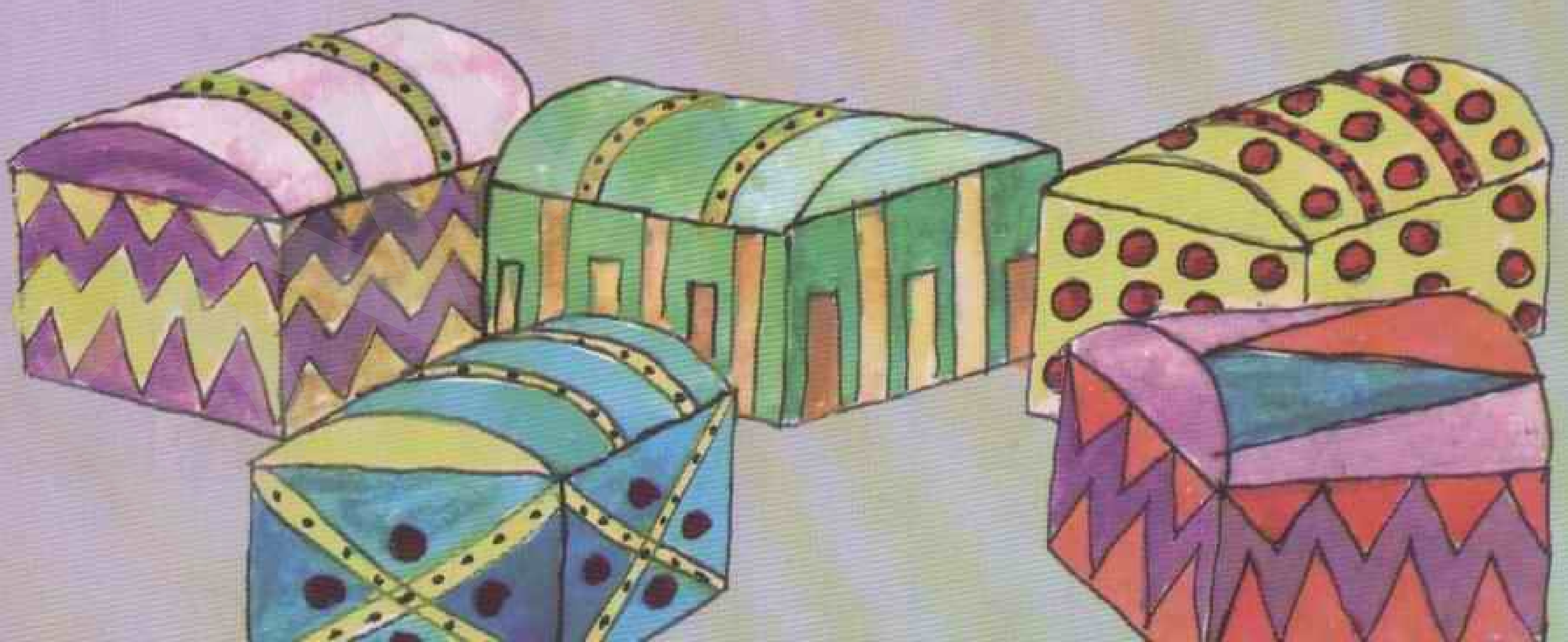
هل يُريدُ أن يؤكِّدَ لعُمَّالِهِ لسببٍ مَا ، أهميةَ شخصِيَّتِى ؟!

راقبْـتُ العُمَّالَ كأنِّى فِـى حُلْمِ يقظةٍ ، وهم يَضعونَ أمامِى عشـرةَ صناديقَ والشيخُ يقولُ لى ، بغيرِ أَنْ أُصدِّقَ طبعًا أنَّ ذلكَ الحديثَ مُوجَّهٌ حقيقـةً لِـى أنَا : « لقد فتحَ اللهُ عليكَ بهـذه الأموالِ واللآلئِ مِنْ رِبْحِ الدراهم الخمسةِ » .

لَـمْ أَنطقْ بحرفٍ حرْصًا عَلَى الأدب ، فلا شـكَّ أن الرجلَ يسـخرُ منِّى ، أو لعلِّى فِى حلم أُعانِى من الهَلْوسَات .

لكنَّ الشيخَ عادَ يأمرُ العُمَّالَ ، فحملوا الصناديقَ فوقَ رؤوسِهم .

ووجدْتُهُ يضعُ بينَ يدَىَّ عددًا من المفاتيحِ ، ويقولُ فى بطءٍ وَوُضوحٍ ليُنقِذَنى منْ ذُهولى :



« احـــرصْ على هَذِهِ المفاتيح ، فَـــلاَ يمكنُ فَتْحُ صنادِيقِـك المَتِينَـــةِ بغيرِهَا ، وامْشِ أمامَ عُمَّالى لتُرشِدَهم إلى طريقِ بَيْتِك » .

ولعلَّهُ لاحظَ أننى لَمْ أصدِّقْ شـيـئًا مِمَّا قالَ ، فتمَهَّلَ قبلَ أن يُضيفَ فِى تأكيدٍ : « كُلُّ هذه الثروةِ لكَ » !

همسْتُ لنفسِى فِى اسْتنكارٍ :

« عَنْ أيةِ ثروةٍ يتحدَّثُ » ؟!

مشَـيْـتُ عاجزًا عَنِ التفكيرِ والتركيـزِ مثـلَ السـائرِ فِى نَوْمِـهِ ، فالصناديـقُ عددُها كبيرٌ ، لكنَّ الشيـخَ لم يفتـحْ واحدًا منهَا أمَامِى ، ولا أسـتطيعُ تصديـقَ أَنَّ واحدًا منهَا يُمكِـنُ أَنْ يحتوِىَ حقًّا عَلى مالٍ أَوْ جَوَاهرَ !

أخيـرًا دخلَ العُمَّالُ بيتنَا ، ووضعُوا الصناديقَ بينِى وبينَ والدَتِى والقردُ يُراقِبُنَا ، وَانْصرفُوا .

سألَتْنى وَالدَتِى فِى دهشةٍ : « ما كلُّ هذَا » ؟!

قلْتُ : « مِنَ المُؤكَّدِ أنها ليسَتْ قرودًا أُخرى » ! !

وفتحْتُ الصندوقَ الأولَ ! ..

كِدْتُ أفقدُ عَقْلى ! !

بريقُ الذهبِ خطفَ بَصَرِى ! !

الصندوقُ مَلآنُ حتَّى حَافتِهِ بالدنانيرِ الذهبيةِ ! !

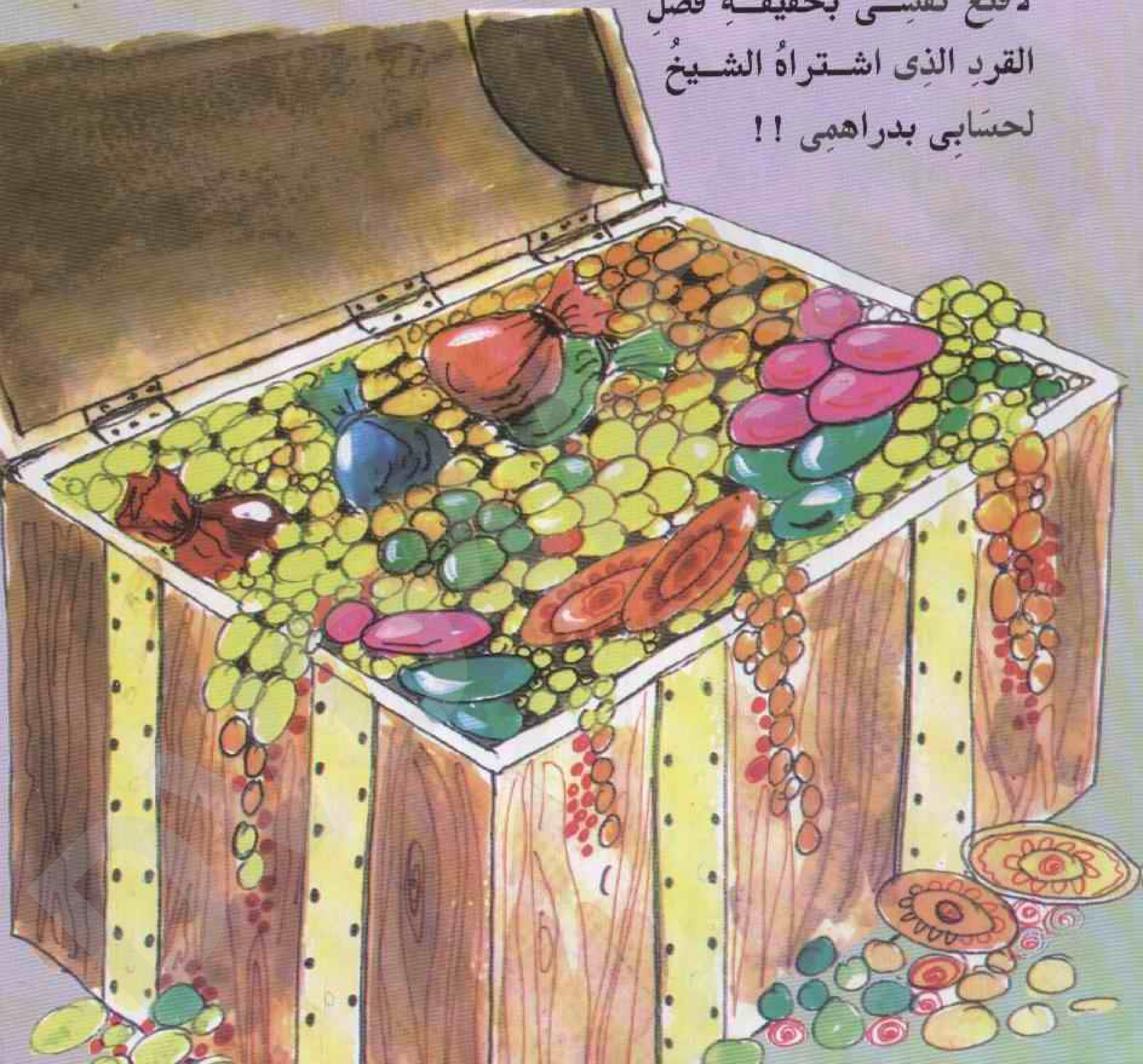
ووجدْتُ نفسَ الأكوامِ منَ الذهبِ الأصفرِ اللَّامعِ فِى الصندوقِ الثانِى والثالثِ وحتَّى التَّاسع ..

أَمَّا العاشـرُ والأخيرُ وكانَ أكبرَهـا ، فمُكَدَّسٌ بلآلئٍ لا تتركُ فراغًا لشيءٍ آخرَ ..

١٤ خمسةُ دراهمَ مُبارَكَةٌ

قالَتْ والدتى ووجهُها يُشِـعُّ لأولِ مرَّةٍ فِـى حياتِهَا بنورِ فرحٍ حقيقِى : « الآنَ تُصَدِّقُ أنهَا خمسةُ دراهمَ مُباركَةٌ » !

وَهِىَ مُباركَةٌ حقًّا وبغيرِ حُدُودٍ ، وَإِنْ كنتُ قدِ احتجْتُ إلـى وقتٍ لأُقنعَ نفسِـى بحقيقـةِ فضلِ القردِ الذِى اشـتراهُ الشيخُ لحسَابِى بدراهمِى !!



مدينةُ البصْرةِ انشغلَتْ بأسرِهَا ، عَلى مَدَى أسابيعَ طويلةٍ ، بأخبارِ القردِ وَحكاياتِهِ الفريدَةِ ! !



أصبحْتُ أعاملُهُ كأنه أخِى ، ووالدَتِى أحبَّتْهُ كابنِها .

أصبَحْنـا صديقَيْنِ لا نفترقُ ، يتفاهمُ أحدُنا معَ الآخرِ فِى ودٍّ ومرحٍ بكلِّ الوسَـائلِ : بالإشارةِ ، بملامحِ الوجْهِ ، بَلْ بالكلمَاتِ التِى أصبحَ يفهمُ معنَى الكثيرِ منهَا .

وفتحْـتُ متجرًا فِى سُـوقِ الذهبِ أبيعُ فيه اللؤلـؤَ والماسَ وأنواعَ التُّحَفِ والجواهرَ الغاليةَ ، والقردُ يجلسُ إلى جوارِى فوقَ مِقْعَدِى .. إذا أكلْتُ يأكلُ مَعِى ، وإذا شربْتُ يشربُ مَعِى ، ويُصفِّقُ بيدَيْهِ عندمَا يَرَانِى أُعطِى منْ مَالِى بسخاءٍ لأىِّ فقيرٍ أو مُحتاجٍ .

ثم فوجِئْتُ به ذاتَ صَبَاحٍ يتركُنى ، ويعودُ مع الظُّهْرِ ، يحملُ كيسًا من الجلدِ عليه كتاباتٌ بعلَاماتٍ غريبةٍ .

فتحْتُ الكيسَ ، وفوجِئْتُ عندمَا وجدْتُ به ألفَ دينارٍ عليهَا كتابةُ بنفسِ العلاماتِ .

الكتابةُ الغريبةُ أكَّدَتْ لِى أَنَّ الكيسَ والدنانيرَ تعودُ إلى زمنٍ سابقٍ لا علاقةَ له بأحَدٍ منَ الأحياءِ .

وأصبحَـتْ تلـكَ عادتَهُ .. يغيبُ أولَ النهـارِ ، ويعودُ فى منتصفِهِ بكيسٍ جديدٍ وألفِ دينارٍ كاملةٍ .

حَدَّثْتُ نَفْسى :

« لقد عثرَ على خزانةٍ نَسِيَهَا أصحابُها القُدماءُ ، يذهبُ إليهَا خُفْيَةً عَنِ العيونِ ، ويُحضِرُ كيسًا كلَّ يَوْمٍ » .

لكنـهُ ، ذاتَ يَوْمٍ ، بـدلَ أَنْ يُحضِرَ لِى كيـسَ الدنانيرِ المُعتادَ ، جاءَ لى بواحدةٍ منْ هذهِ الأشجَارِ التِى مِـنْ ذهبٍ وأوراقُها مِنَ الزُّمُرُّدِ

الأخضرِ وثمارُها منَ اليَاقُوتِ الأحمَرِ واللَّؤلؤِ الأَبيضِ .

تأكَّدْتُ أنهُ اكتشفَ الطَّرِيقَ إلَى مدخَلِ كنزٍ مُذهِلٍ ، وعندمَا وجدَنى



أَبيعُ وأشـترِى التُّحَـفَ والجواهرَ بدأ يُحْضِرُ لى مـا تَصوَّرَ أننِى فِى حَاجَةٍ إليه .

حاولْـتُ أَنْ أعـرفَ أينَ يذهـبُ ، وكيفَ يأتِى بكلِّ هـذه التُّحَفِ والثرواتِ المُدهِشةِ التى لا تناسبُ إلا قصورَ الملوكِ والسلاطينِ ، لكنهُ ظلَّ لا يستطيعُ أَنْ يفهمَ لماذَا تشغلُنى الحاجةُ إلى معرفةِ مكانِ الكنزِ مَا دَامَ يُحضِرُ لى منهُ فِى كلِّ يَوْمٍ مزيدًا !

وذاعَتْ شُـهْرَتى بينَ الخُبَراءِ ، فما يُمكِنُ العثورُ عليهِ فِى متْجرِى لَنْ يجدوهُ فِى أىِّ مكانٍ آخرَ مِنْ بلادِ الخلافةِ .

وطالمَـا تمنَّيْتُ أَنْ أُقدِّمَ لمـولَاى الخليفةِ بعضَ هذه العجائبِ التِى لا تُناسِـبُنى ، وَلَا تليـقُ إلا بمقامِ السلطانِ الأعظـمِ مولانَا الخليفةِ هَارُون الرشِيد .

١٥ بها يكتملُ التاجُ

تَمهَّلَ تاجرُ اللؤلؤِ والتُّحَفِ المَشْهورُ « عبدُ السلام الكَسْلانُ » قبـلَ أَنْ يختتمَ حكايتَهُ قائلاً : « ومنذُ أسـابيعَ جاءَنى القِرْدُ فِى حلم يقولُ لـى : دراهمُـكَ أنقذَتْنى مِنْ عدوانِ قرودِ جُزُرِ البحرِ ، وقد جئْتُ لكَ بالثـروةِ التِى لَمْ تبخلْ بهَا يومًا عَلَـى المُحتَاجينَ ، والآنَ حانَ وقتُ عَوْدتِى إلَى أرْضى .

وَفِى الصباحِ بحثْتُ عنه ، فلَمْ أعثرْ لهُ على أثرٍ .

وكانَ آخـرُ مـا أتانِـى بِـه ذلكَ القِـردُ العجِيبُ ، هَـذِه الجوهـرةَ النَّفِيسةَ » .

وأدخلَ عبدُ السلامِ يدَهُ بينَ ثيابِهِ ، وأخرجَ ماسةً فِى مثلِ حجْمِ بيضَةِ الدجَاجةِ ، يُشِعُّ منها الضوءُ ويتلألأُ ، وينعكسُ فِى ألوانٍ مُذهِلَةٍ عنْ أوجهِهَا المصْقُولةِ المتعدِّدَةِ .



مَـا إنْ رأى الخليفـةُ الماسـةَ النـادرةَ حتَّى صـاحَ وقـد تملَّكَتْهُ الدهشـةُ البالغةُ : « هـذِهِ هىَ الجوهرةُ المطلوبـةُ .. أوقِفوا البحثَ عنها فقدْ وجَدْناهَا .. بِهَا يكتملُ التاجُ ، وتعظمُ قيمةُ الهديَّةِ ، وتصفُو النفوسُ وترضَى » !



ثم التفتَ إلى ضَيْفِهِ وأضافَ :

« أمَّا أنْتَ يَا « عبدَ السلامِ » ، فلنْ نُنادِيكَ بعدَ اليومِ « الكَسْلانِ » .. اسمُكَ منذُ اليومِ « عبدُ السلامِ البَصْرِيُّ » ، واختَرْناكَ لتكونَ « شهبندر » تُجَّارِ البصرةِ ، تأتى لتُشارِكَنا ليالِيَ السمرِ ، نستمعُ إلى حكمتِكَ وأخبارِكَ ، وتختارُ لنا مَا نشترِيهِ منْ عجَائِبِ التُّحَفِ ، نُقدِّمُها هدايَا إلى الزوجَةِ .. وإلى الأصدقاءِ مِنَ الملوكِ وَالسَّلاطينِ » .





أنشطةٌ حولَ القصةِ :

نقترحُ عليكَ أن تشتركَ فى أحدِ ، أو كُلِّ الأنشطةِ الآتيةِ :

١ – قالَتْ والدةُ عبدِ السلام إن الدراهمَ الخمسةَ « نقودٌ مُبارَكةٌ » ، هل ترَى أنّها كانَتْ مُبارَكةً حقًّا ؟ ولماذا قالَتْ هذَا التعبيرَ ؟

٢ – هناك شَىْءٌ مُتشابِهٌ فى علاقةِ عبدِ السلام بالطبيبِ ، وعلاقتِهِ بالسيدةِ العجوزِ المريضةِ ، وعلاقتِهِ بالقردِ ، هل هو المصلحةُ المُتبادَلةُ ، أم الاهتمامُ الإنسانِىُّ بالآخرينَ ؟

٣ – ما هِىَ فى رأيِكَ أهمُّ ملامحِ شخصيةِ التاجرِ « عبدِ الظافرِ » ؟ اذكرْ أهمَّ مواقفِ القصةِ التى تُبيِّنُ ما يتَّصِفُ به هذا التاجرُ من صفاتٍ .

٤ – هل كلُّ وقائعِ هذه القصةِ مُمكِنَةُ الحدوثِ ؟ تحدَّثْ ، من وجهةِ نظرِكَ ، عن دَوْرِ الخيالِ فِى أحداثِهَا .

٥ – تحدَّثْ عَنِ الصورةِ التى رسمْتَها فِى خيالِكَ حولَ حقيقةِ شخصيَّةِ القردِ .